هل نحن معنيون بالاستشراق؟

الرفيق د. عبد النبي اصطيف

ما الاستشراق؟

سؤال كثيراً مايراود المرء في معرض التفكير في العلاقة المتوترة ـــ أبداً فيما يبدو ـــ بين الشرق والغرب، أو بين الإسلام والغرب.

وموجبات هذا السؤال كثيرة، ربما كان من أبرزها اختلاف المعنيين به فيما بينهم على تعريف جامع مانع للاستشراق تستظل به صوره الكثيرة المتنوعة الغنية كثرة الحياة وتنوعها وغناها، ويتلو ذلك ما يستتبع الحديث عن طبيعة الاستشراق عادة من السؤال عن وظيفته أو وظائفه، لينتهي مطاف الأسئلة بسؤال كبير وخطير وجوهري هو:

ما الذي يعنينا في هذا السؤال إن كان ثمة مايعنينا به؟

ولنبدأ بالسؤال الأول المتصل بطبيعة الاستشراق محاولين الإجابة عليه.

ما الاستشراق؟

«الاستشراق»، أو «ORIENALISM» معرفة موضوعها الشرق، ينتجها غالباً غير الشرقي عن هذا الشرق الذي يضيق ويتسع حسب منظور منتج هذه المعرفة المحفوزة بالفضول حيناً، وبالخوف حيناً آخر، فضلاً عن الحاجة، التي هي أم الاختراع، والتي تفرضها المواجهة العريقة المتجددة بين الشرق من جهة ومجتمعات غير الشرق من جهة أخرى.

ولما كان هذا التعريف مجرد تعريف مبدئي فربما كان من الحكمة التوقف عند مكوناته بشيء محدود من الشرح.

إن الناظر الى هذا التعريف يستطيع أن يتبين أن الاستشراق، وعلى الرغم من

اختلاف الناس في تعريف وتحديد طبيعته ووظيفته وحدوده فضلاً عن نشأته وتطـــوره وتنوع صوره وأشكاله.

* «معرفة» «KNOWLEDGE» بمعنى أن الاستشراق، بصرف النظر عن صورتـــه ومنظور منتجه ينطوي على معلومـــة PIECE OF INFORMATION ، أو معلومـــات، تتصل بموضوعه SUBJECT MATTER ، الذي هو الشرق وأهله تاريخاً وثقافة وحضـارة ومجتمعات.

* «موضوعها الشرق»، بمعنى أن موضوع هذه المعلومة أو المعلومات هو الشـــرق وهو مصطلح متعدد الدلالة، بتعدد موقع الناظر إليه ومنظوره ورؤيته للعالم والإنســـان الذي يعمره، وهكذا فإنه يضيق في نظر البعض فتقتصر دلالته على الشـــرق الأدنى، أو الشرق الأوسط، ويتوسع في نظر البعض الآخر فيشمل كل مايقع الى الشـــرق مـــن الغرب الأوربي بما في ذلك الصين واليابان.

* «ينتجها، في الغالب غير الشرقي» المقيم في هذا الغرب الأوربي الذي يشـــمل عادة الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وأوستراليا التي تنضوي جميعها تحت لواء واحد من الغنى الاقتصادي، والتقدم التقني، والتفوق العسكري، والسلطان السياسي، فضـــلاً عما يفرزه كل ذلك من تقدم ثقافي وفني ومعرفي، والمعرفة بحد ذاتهـــا ســـلطان وأي سلطان.

* «محفوزاً بالفضول حيناً» والإنسان مخلوق لا يجاريه مخلوق آخـــر في الفضـــول والتطلع الدائم الى مزيد من المعرفة عن نفسه، وعمن يحيط به، وما يحيط به من عوالم.

* «وبالخوف حيناً آخر» الذي يعد كابوساً يلازم صاحبه حتى يصرفه عنه بمعرفـة مصدره وبواعثه. والغربيون، بفضل الرئيس الأمريكي بـــوش الابـــن الـــذي زرع في نفوسهم الخوف من الإسلام وأهله بعد ان قرنه بالإرهاب وأقنعهم بأنه تربته الخصبـــة، مفعمون بهذا الخوف الذي تغذيه التغطيات الإعلامية المثيرة، معززة بذلـــك العلاقـــة المتوترة أصلاً بين الإسلام والغرب، والتي يعود توترها أساساً الى اســـتخفاف الغـــرب

الصراعات والمواجهات بين الشرق والغرب، فضلا عن صدورها عن رواسم STEREOTYPES مستمدة من «التوراة» و«وألف ليلة وليلة» ناهيك بعد ذلك عما يحكمها من أهواء ورغبات (وصورة المرأة العربية المسلمة مثال صارخ تحفل به كتب الرحالة الغربيين عن الوطن العربي).

* والاستشراق «معرفة» موظفة لصالح منتجها الذي يحسن الإفادة منها في أية مواجهة تقوم بيننا وبين مجتمعه. وقد استخدم منذ نشأته في احتوائنا، واستغلال خيراتنا، والحد من تطلعاتنا، وتقليم طموحاتنا إن لم يمكن إحباطها، ولا يزال يستخدم في التحكم بمقدراتنا وتقرير مصائرنا.

* وفضلا عما تقدم، فإن هذه «المعرفة» لم تسهم في خلق تفاهم أفضل بين الغرب / منتجها من جهة، وبين «الشرق» و«الإسلام» من جهة أخرى.

ويفترض بالمعرفة أن تبدد العداوة إذ «الناس أعداء ماجهلوا»، ونحن مافتئنا نراها تؤجج نار العداوة والبغضاء والكراهية بين الإسلام والغرب بشكل خاص، وبين الشرق والغرب بشكل عام.

إن الاستشراق، وباختصار شديد، «معرفة» ملوثة بفيروس «القوة» و«السلطان «»POWER الذي استوطن على نحو مزمن، ولاسيما في القرون الثلاثة الأخيرة، صلات الشرق بالغرب، ولذلك فإنه يبدو، للكثيرين من العرب والمسلمين والشرقيين عامة، معرفة إشكالية ينبغي أن تخضع للمساءلة من جميع المتصلين بعملية انتاجها. ولكن هل يعني ذلك أننا نستطيع تجاهلها أو الإعراض عنها مستندين في موقفنا هذا الى ماتقدم من حديث عن الثغرات التي تنطوي عليها؟

الجواب بالتأكيد هو بالنفي.

وموجباته كثيرة ربما كان من أبرزها أمران:

أولهما أن علاقتنا بـ «الآخر» الغربي وسواه محكومة ـ شئنا أم أبينا ـ بسابق تصوارته عنا، ولا سبيل البتة الى تغيير طبيعة هذه العلاقات دون العمل بشكل إيجابي

وفعال على تغيير هذه التصورات التي انحفرت في اللاوعي الجمعي الغربي عنا، والتي لاتفتأ وسائل الإعلام المختلفة، وقد أصبحت اليوم ذات سلطان لايقاوم، على بعثها وتجديدها ودوام بقائها بشتى السبل، ومعنى هذا أننا معنيون بشكل مباشر بالاستشراق وما ينتجه عنا من «معرفة» مغرضة تستخدم سلاحاً ضدنا، ومسوغاً لفرض إرادة «الآخر» علينا بحجة أننا، بطبيعتنا، معادون للغرب، وللتقدم، وللتحديث، وللسلام، وللديمقراطية، وللمساواة بين الرجل والمرأة في المجتمع الإنساني، وغير ذلك من أوهام وأساطير استطاعت وسائل انتاج المعرفة ونشرها في الغرب أن ترقى بها الى مستوى المسلمات التي لايأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

والاستشراق ليس المصدر الذي ينهل منه الغرب وحده في بناء تصوراته عنا، بل هو كذلك مصدر سائر أمم العالم وشعوبه التي باتت تعتمد على المعرفة الغربية وتثق بها، في تشكيل تصوراتها عن العرب والإسلام والمسلمين. وبالتالي فإن معرفة «الآخر» غير الغربي بنا محكومة بالاستشراق. والمفارقة التي تدعو الى الأسى أن المجتمعات الإسلامية والعربية تعتمد في تعارفها فيما بينها على هذا التقليد الثقافي تنهل منه وتعمل، لتوافره ويسر الحصول عليه ولاسيما المنشور باللغة الانكليزية التي باتت لغة كوكبنا الأرضي GLOBAL LANGUAGE . وقد تبين الكيان الصهيوني أهمية هذا المصدر من مصادر المعرفة عن العرب والمسلمين والإسلام فانخرط، من خلال مؤسسات الاستشراق الغربية، في عملية انتاج معرفة مغرضة عنهم تخدمه في مواجهاته لهم وتساعده في تسويغ ماتجترحه يداه من قهر وظلم وجرائم حرب ضد أشقائنا في فلسطين.

وثانيهما أن هذا التقليد الثقافي الموسوم بـ «الاستشراق» تقليد حي تنتجه أمم حية تجل المعرفة فتحرص على تنمية انتاجها ونشرها والإفادة منها بجعلها خير ضمان لمصالحها، وهي لذلك تخضعه باستمرار للمراجعة والنقد والتطوير. والمتتبع لتاريخ هذا التقليد وبخاصة في العقود الأخيرة يتبين أنه قد خضع لتحولات إيجابية كثيرة يسرت

فسحة أوسع لنا، نحن الداخليين من العرب والمسلمين والشرقيين، للإفادة منه في الجوانب المختلفة لعملية التنمية الشاملة التي نطمح إليها. ولما كان المقام لا يسمح بالحديث مطولاً عن هذه التحولات فإن بإمكان المرء أن يشير الى أهمها على نحو برقي فيذكر على سبيل المثال:

* انفتاح الاستشراق على التطورات الأخرة والراهنة في مختلف ميادين المعرفة ولا سيما العلوم الإنسانية.

* انفتاح الاستشراق على موضوعه: لغة وحياة وتواصلاً مستمراً معه ومع ماينتجه من معرفة تتصل بتاريخه وثقافة مجتمعه.

* استجابة الاسشتراق المتنامية لما وجه الى نتاجاته من نقد داخلي وخارجي ولا سيما في ربع القرن الأخير الذي تلا نشر كتاب ادوارد سعيد «الاستشراق» (نشر عام ١٩٧٨).

* ازدياد إسهام الداخليين من العرب والمسلمين فيه ــ الأمر الذي أثر في نوعية ماينتجه من معرفة باتت تتسم بعلاقة أكثر حميمية بموضوعها تتحدى خارجيته وانسلاخه عن هذا الموضوع.

* تطور مؤسسات الاستشراق وبناءه على مختلف الصعد الى درجة جعلت من المصطلح ذاته «الاستشراق» ــ في نظر البعض ــ مصطلحاً عفا عليه الدهر.

وصفوة القول أن علينا ــ نحن العرب أن نعمق هذه التحولات الإيجابية ونعززها، ونسعى جاهدين الى تأسيس شراكة معرفية مع «الآخر» الغربي خاصة، والخارجي عامة، بغرض انتاج معرفة تتسامى على واقع المعرفة الاستشراقية الراهنة، وتسعى الى تحقيق غايات أسمى من المصالح الدنيوية الآنية التي تهيمن عليها ــ غايات ربما كان من أهمها خلق تفاهم أوسع وأعمق بين الغرب والاسلام مؤسس على المعرفة الموضوعية بدل مرددات الجهل التي لم تحمل الى الفريقين غير الكراهية والبغضاء وإراقة الدماء.

حزب البعث العربي الإشتراكي
القطر العربي السوري
القيادة القطرية

أحدة حرية اشتراكية

دراســـات فكريــة

يصدرها مكتب الإعداد الحزبي في القيادة القطرية

في هذا العدد

* بشار الأسد في سنته الخامسة	الأستاذ طلال سلمان	ص٣
* الرئيس بشار الأسد وأربع سنوات عاصفة في الحكم	صحيفة الأهرام	ص٩
* السياسة الخارجية السورية في ظل قيادة الرئيس بشار الأسد	الرفيق د. عيسى درويش	ص١٥
* مسألة التنظيم القومي، لابد من حلول جزئية	الرفيق د. مهدي دخل الله	ص٣٧
* الثقافة والمقاومة والعولمة	الرفيق عدنان العويد	ص٤٠
* هل نحن معنيون في الاستشراق	الرفيق د. عبد النبي اصطيف	ص ٥١
* تطور مفهوم (الأمة) من صلة النسب إلى إرادة الانتماء	الرفيق د. جورج صدقني	ص٥٧
* في المنطلقات الفكرية للحزب ومسألة تطويرها	الرفيق د. حسين جمعة	ص٦٨

العدد (٥) التاريخ ١٠ / ٨ / ٢٠٠٤